السيّد الأمين وكتابه (أعيان الشيعة)

الشيخ جعفر المهاجر

إن الحياة الحافلة والمجيدة للإمام والسيد الأمين قدّس الله نفسه الذكية، تمنح المتأمل في سيرته وأعماله خيارات عدة في البحث. بحيث يمكن أن يتمعن فيها من زوايا متعددة، تشرف كل منها على منظر مختلف.

فهنا الفقيه الجليل الذي يرتفع من غمار الناس من قرية بائسة في (جبل عامل) المبارك، أرض العلماء الفقراء. الذين انتشروا وما يزالون في الدنيا. وخلّفوا حيثما حلوا خيراً وبركة، وأنبتوا إنباتاً حسناً. لينال مكانة سامية في العاصمة الإقليمية للمنطقة. ولكنه يبقى على حالة من التمازج مع أوسع الجماهير، على ما أُثر عن فقهاء الشيعة في هذا الميدان. ومن هذا يترك في الناس أثراً حميماً مباركاً إبان حياته ومن بعده. وما مؤتمركم الكريم هذا إلا صدى يترجّع عن الماضي القريب، الذي كان فيه بطلنا يُلقي بظلّه الأبوي على جانب وضّاء من حياة هذه المدينة العريقة.

وهناك المؤلف المكثر والمتعدد الأغراض الذي كتب في افقه والحديث والكلام والآداب والسير وقرض الشعر. وبلغ ما كتبه من الكثير حداً، بحيث إذا قسم على أيام حياته، لبلغ كراساً كل يوم. كما قال هو في ترجمته لنفسه التي ذيل بها (أعيان الشيعة). وهو أمر يؤثر عن ثلاثة من علماء الإسلام هم العلّامة الحلي والشيخ المجلسي وحجة الإسلام الغزالي.

ثم هناك رجل الإصلاح الذي يهتم بتأسيس المدارس، ويعمل على تصحيح ما يعتقد أنه طارئ وغريب على شعائر الدين. طبقاً لمعايير واضحة لديه. وفي هذا السبيل يلقى الكثير من العنت، الذي يصل إلى حد التجرّع الشخصي القاسي. ومع ذلك فإنه لا يتراجع. ولقد كان في غنى عن ذلك كله. وهو العارف الخبير بقوة التقاليد التي ينكرها ويعمل على إبطالها. ولولا إيمانه الثابت بصواب مذهبه في هذا، والتزامه بلزوم أن يُظهر العالم علمه، وبواجب الأمر بالمعروفوالنهي عن المنكر، لما كان يضع نفسه في هذا الموقف المضني الذي لقي فيه ما لقي.

هذه الجوانب الثلاثة من سيرة السيد الأمين يتفرع عنها عشرات الموضوعات يصلح كل منها للبحث والتأمل. اخترت من بينها كتابه الأشهر (أعيان الشيعة) وذلك لسببين:

ـ السبب الأول: أن هذا الكتاب هو أهم الباقيات الصالحات مما ترك. وقد غدا من المعالم البارزة في المكتبة العربية بل الإسلامية. بحيث إنه صار من الضروري أن تنظر إليه بوصفه ثروة عامة. مثلما ينظر كل أهل حضارة إلى الأعمال التي اندرجت في ضمائر الناس بوضفها تعبيراً ساطعاً عن موقفهم من الدنيا.

ـ السبب الثاني: أني لطول ما اشتغلت على (أعيان الشيعة) وأفدت منه قد اجتمعت لدي عنه ملاحظات جمة. تتصل بمنهجه ومادته ونسقه. لا يتأتى الحصول على مثلها، إلا ببذل مثل ما بذلت في سبيلها. خصوصاً وإنني أرجو لمؤتمركم الكرين أن لا يكون مجرد مهرجان وفاء وتكريم لرجل يستحق كل وفاء وتكريم. بل فيما يعود إلى (أعيان الشيعة). خصوصاً عمل متنابعة وإحياء وتحديث. وبذلك تؤدي فعل وفاء وتكريم حقيقي، لرائد كبير وعالم جليل، ما اكترث يوماً بكلمات المديح والتعظيم والتبجيل لشخصه. وأشير بالمناسبة إلى أنه خلال السيرة التي كتبها لنفسه وذيّل بها

على (أعيان الشيعة) أشار بسطرين اثنين لا غير إلى تكريم الحكومة له بإطلاق اسمه على الحي الذي نزله في (دمشق) فسمته (حي الأمين) كما لا يزال حتى اليوم. بدلاً عن الاسم التاريخي الذي ظل يعرف به مدة عشر قرون تقريباً، أي (حي الخراب). وهذا تكريمنادر جداً. فالمألوف أن اسماء الرجال العظام تطلق على معالم بارزة تخليداً وتعظيماً من بعد وفاتهم، وليس إبان حياتهم. ولو أن أمراً كهذا أو شبهه حصل لأحد من ترجم لهم، لما كان هناك أدنى شك في أنه كان سيقف عنده الوقفة المناسبة متحدثاً عن دلالته على جلالة قدره وارتفاع مكانته واعتراف الناس بفضله. على عادته في مثل هذه الموارد. وأخال أنه لم يُشر إلى الواقعة بذينك السطرين، إلا أداء لأمانة التأريخ، التي تفرض على من تصدى لما تصدى له أن لا يُغفل ما يستحق الذكر.

بناءً على ما اخترنا نقول:

إذا كان اسم أي كاتب هو بمثابة وعد يقطعه المؤلف للقارئ، يقول له فيه ماذا يبحث وبماذا يفيده. وهو كذلك بالفعل، فإن الوعد الذي يقطعه كتابنا واضح جداً. إنه يتألف من مفهومين هما (أعيان) و (شيعة).

أما (أعيان) جمع عين، فهي كلمة إذ تأتي مضافة إلى قوم تعني أشرافهم. تنزيلاً للرجل الشريف من قومه بمنزلة العين الباصرة وما لها من شرف بين أعضاء الإنسان. ولامشاحة في هذا، ولا نطيل الوقوف عنده. خصوصاً وأن المؤلف يعقد في مقدمة الكتاب فقرة لا ينقصها التفصيل ولا التحديد، يبين فيها ماذا تعني الكلمة وماذا يريد بالضبط منها.

المشكلة كل المشكلة هي في الجزء الثاني من اسم الكتاب، أي كلمة (الشيعة). وفي رأيي أننا نكاد نواجه هذه المشكلة في كل صفحة من صفحات الكتاب الضخم.

يعقد المؤلف فصلاً كاملاً في مطلع الكتاب، هو المقدمةالثانية له. تحت عنوان ومعنى لفظ الشيعة. ألمّ فيه بالتطور الألسني للكلمة، وبما نبت بموازاتها من كلمات أخرى، وهي تخوض معتركها الفكري السياسي الاجتماعي، مثلما تنبت الفسائل حول جذع الشجرة الأم. من (إمامية) و (متاولة) و (جعفرية) و (قزلباش)...الخ الخ. وهو بحث كان يمكن أن يكون مفيداً جداً للمشروع. خصوصاً وأنه ورد في المقدمة لتي يعقدها المؤلفون لأغراض منها تحديد مشكلة أو مشكلات البحث ومصطلحاته. لو أنه تقدم فيه خطورة واحدة فقط، يقول لنا فيها ماذا يعني هو بالكلمة، أو ماذا تعني الكلمة عنده. ولو أنه فعل لكان في ذلك خيراً وبركة وغنى على الكتاب وعلينا. مثلما فعل (آغا بزرك) في مقدمة كتابه العظيم، ذي المنهج الواضح الصلب، الذريعة إلى تصانيف الشيعة. ونشير بالمناسبة إلى أن هذه المقدمة الثمينة بما احتوت عليه من تعريفات وتحديدات منهجية لا غنى عنها للقارئ قد حُذفت من الطبعة الثانية للذريعة. في حين احتفظ الناشر بمقدمات أخرى فيها كلمات تقريظ وثناء لا تسمن ولا تغني من جوع. وهو اعتداء فظيع لا مبرر له على الإطلاق. نرى منه كيف أن تراث أعلامنا العظام الذي أفنوا في وضعه وتصنيفه أعمارهم الشريفة، قد غدا نهباً يتصرّف فيه أهله وغير أهله بالحذف والإضاءة أنّى شاءوا دون اكتراث بالمقاييس. وكأنه ملك شخصي لهم.

لو أن السيد الأمين طيّب الله ثراه، وضع اي تعريف لكلمة (شيعة). ومن المؤكد أنه كان سيضع تعريفاً صحيحاً، لكان من المستحيل أن نجد في كتابه تحت عنةان (أعيان الشيعة) سيرة النبي صلوات عليه وعلى آله إلى جنب سيد الشهداء حمزة الذي يصعب أن تجد إنساناً أكثر بُعداً منه عن التشيّع. والذي تتفق الألسنة على القول فيه إنه كان رجل سوء لأمور عظام ارتكبها في الإسلام. إلى المشعشعين الأوائل الغُلاة. إلى تيمورلنك، ذلك الشيطان الخبيث، الذي قتل من المسلمين ربما أكثر مما فعل أي إنسان في التأريخ، ودوّخ (دار الإسلام) قتلاً وتدميراً. ونال (دمشق) بلد السيد الأمين، من شروره ما تحدث عنه كتب التاريخ بكلمات سوداء دامعة. إلى إلى إلى مما يخرج تتبعه وإحصاؤه عن غرض هذه المشاركة.

لست اسمح لنفسي أن أتصوّرأن السيد الأمين لم يكن يدرك المفارقات التي ينطوي عليها هذا المنهج، أو بالأحرى فقدان المنهج. فأنا أعرف جيداً عن أ جبل علم وفضل أتكلم. ولكنني اعتقد أنه كان معلّق النفس، وهو يضع كتابه، بحشوه بأكبر قدر ممكن من المعلومات. بحيث إنه ينظم مادته بالمناسبات والاستطرادات والمجادلات. وأخال أنه كان يريد أن يجمع بين وظيفة الفقيه المبلّغ، الذي ليس له أن يكتم علمه . وفي هذا السبيل فإن عليه أن يخلق المناسبات والذرائع لإظهاره وإذاعته. وبين عمل الباحث الصلب المنهج، الذي لا يصعب على المستفيد من (أعيان الشيعة) أن يلمسه. ومن هنا جاء الكتاب كتابين، بل عدة كتب تحت عنوان واحد. وإنني لاعتقد أنه كان من الأفضل أن تخرج سيرة النبي صلوات الله عليه والأئمة عليهم السلام كتباً مستقلة. وكذلك الأمر بالنسبة لداوين الشعراء مثل أبي تمام ودعبل. أي أن من الممكن، وربما كان من الضروري أن نفصل نصف (أعيان الشيعة) تقريباً عنه، دون أن ينقص الكتاب شيئاً، بحسب الغرض الذي وضعه له مؤلفه وأعلنه على الملأ في اسم الكتاب. ومن المؤكد أن الباقي سيكون أقرب كثيراً من اسمه.

أيها المؤتمرون الكرام..

أريد أن أخلص من هذا النقد الذي وقفنا فيه عند المنهج فقط، إلى غرضي الأساس منه، مستفيداً من هذه المناسبة غير العادية، التي ربما لن تتكرر في حياتنا مرة أخرى، لأشكر من أعماق القلب المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية على فكرة المؤتمر النيّرة أولاً ثم على ما بذلت من جهد في سبيل تنظيمه. لأطرح على مؤتمركم الكريم وعلى المستشارية الموقّرة وعلى كل من يعتبر نفسه معنيّاً ومسؤولاً ويجد في نفسه المقدرة، لتحويل (أعيان الشيعة) إلى مؤسسة. شأنها في هذا شأن غيرها من الكتب التي تحمل على عاتقها مهمة حضارية. بحيث هي مرآة من مرايا الأمة، ننظر فيها إلى ذاتها في عمقها التاريخي. وتستشرف من خلالها تطلعاتها المستقبلة. وليست مجرد كتاب يقرأ فيه القارئ معلومات حيادية. الفرق بين ذنيك النوعين من الكتب هو تماماً كالفرق بين صورتين. الأولى لك، تنظر فيها إلى نفسك، إلى ذاتك، بحيث تكاد تحس أنها أنت. والثانية لغيرك لأخر تعرفه أو لا تعرفه. ولكن في حال ليس منك. ولا ريب أن (أعيان الشيعة) هو من النمط الأول. إنه احدى المرايا التي نرى فيها ذاتنا.

ستكون مهمة هذه المؤسسة العتيدة تطوير الكتاب منهجاً ومادة وأسلوباً. والمحافظة عليه في حالة دائمة من التطور والتجدد والمرافقة.

ولكن... لماذا (مؤسسة أعيان الشيعة)؟

استطيع أن أعرض أمامكم أسباباً كثيرة للطرح. ولكنني تجنباً للإطالة، سأقتصر على سببين اثنين:

- الأول: كل من مارس (أعيان الشيعة) يعرف أي جهد خارق بذله مؤلفه رضوان الله عليه في وضعه. ومن ذلك أنه تجوّل مرتين في (العراق) و (إيران) منقّباً في مكتباتها الخاصة والعامة. وقد حدثنا في رحلتيه عن كفاحه في هذا السبيل. ومن ذلك الحرج الذي كان يلقاه مع كبار زائريه، حين كان يكتفي عند استقبالهم بأقل ما تقتضيه اللياقة، لينصرف إلى عمله في البحث والتنقيب وتسجيل المعلومات، وهو جلوس عنده. مما كان يؤدي أحياناً إلى إشكالات. فكأنه كان في سباق مع الوقت ومع العمر المتاح. وكان مصمماً على كسب السباق. ومع ذلك فقد أتى (أعيان الشيعة) في النهاية قاصداً عن أداء حق اسمه. على الأقل بالنسبة للكثيرين الذين فاته ذكرهم، وكان من حقهم أن يكونوا في عداد المترجم لهم فيه بحسب شرط الكتاب. وما ذاك إلا لأن العمل أكبر بكثير من يؤديه فرد مهما كدّ وتفانى.

  ولنُضف إلى ذلك، أن كثيراً من المصادر الإسلامية والأمهات لم تكن متاحة للباحث في زمانه. وصارت الآن ميسورة، إما بنشرها، وإما بتيسر الحصول عليها بعد تنظيمها في مكتبات مجهزة. من ذلك مكتبة الأسد في (دمشق) التي جمعت مخطوطات القطر في مؤسسة واحدة ويسّرت الاطلاع عليها للباحثين، مع كافة التسهيلات والتجهيزات. ومعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية. المكتبة المركزية في (طهران) ومكتبة مجلس الشورى في (طهران) أيضاً. مكتبة آية الله مرعشي في (قم) مكبة الإمام الرضا عليه السلام في (مشهد) وغيرها كثير. فضلاً عن التسهيلات الجمة التي صارت في خدمة البحث والباحث سواء لجهة الحصول على المعلومات، أم لجهة حفظها وتنظيمها واستعادتها.
- الثاني: خلال مدة النصف قرن الماضية التي مرت منذ أن كان السيد الأمين مشغولاً بوضع كتابه، برز مئات وربما آلاف ممن ينطبق عليهم شرط الكتاب. ومن حقهم وواجبنا أن يكونوا في عداد أعيانه. وجمع المعلومات الكافية عن هؤلاء يستلزم جهازاً على حد رفيع من الكفاية والتنظيم. ومن الواضح أن هذا لا يتم خارج إطار مؤسسة.

ختاماً أقول:

إذا أردنا أن نلخّص حياة السيد الأمين في كلمات، فإنني لا أجد خيراً ولا أصدق من كلمتين: التواضع والعمل. لم يكترث يوماً بالتقريظ والمديح. وآثر العمل الصامت. امرؤ كهذا لا يُكرّم بالكلام، بل بالبناء على ما أسس والخطو على ما ارتاد.

أسأل المولى سبحانه أن لا ننقلب من مؤتمرنا هذا إلا بفضل منه ونعمة.